

جدلية الآخر والنسق الثقافي في الشعر العراقي (١٨٧٥ - ١٩٤٠)

أ.م.د. جاسم حميد جودة الطائي الباحث. حسنين عماد عبد الله الطائي

كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة بابل

The Controversy of the Other and the Cultural Context in Iraqi Poetry (1875-1940)

Ass. Prof. Dr. Jassem Hameed Jouda Al - Tai

Researcher. Hassanein Emad Abdullah Al-Tai

College of Education for Human Sciences\ University of Babylon

Abstract:

The research dealt with the concept of the other and how cultural forms were formed. Because nature in all its manifestations has left its traces on the pages of the poet's feelings and feelings and mixed with his psychological state and his religious, ethnic and national affiliations and managed to frame his own experiences with all the contradictions. The second focus of the research is the western one. We know the pictures of the other, how the poet expressed the images, the religious one, and how the religious self-formed its own centrality, and how it created its identity and felt itself, making its way towards centralization and centrality.

Keywords: identity, self, image, other, positive, negative, religion, Islam, heavenly religions.

الملخص:

تناول البحث مفهوم الآخر والكيفية التي تشكلت منها الأنساق الثقافية، لأن الطبيعة بكل مظاهرها قد خلفت آثارها على صفحات إحساس الشاعر ومشاعره وامتزجت بحالته النفسية، وانتماءاته الدينية والعرقية والوطنية، واستطاع أن يوطر بها تجاربه الذاتية بكل ما تحمله من تناقضات. فركز البحث على نسقين، هي (الآخر الغربي)، وتعرفنا على صور الآخر الغربي، وكيف عبر الشاعر عن تلك الصور، (الآخر الديني) وكيف كونت الذات الدينية مركزيتها الذاتية، وكيف تخلقت هويتها وتحسست ذاتها، بشق طريقها نحو التمرکز والمحورية.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الذات، صورة، الآخر، إيجابية، سلبية، الدين، الإسلام، الديانات السماوية.

المقدمة:

قدم الأدب نظرة عميقة للذات البشرية التي كانت تبحث عن جميع أشكال التواصل، نجد أن المنظور الثقافي يعنى بالحديث عن هذا الجانب كما تذهب كثير من الدراسات، ويمكن أن نحيل إلى تحولات المجتمعات التي تحرص على صون تكوينها العميق لما يسمى الشخصية الثقافية للأمة، فثمة دعر من محاولات التخلي عن الموروث، والعادات والقيم، أو كما يخيل للبعض، ونقل مختلف المرجعيات الثقافية والتواصل مع الآخر في ثنائية تناظرية (الأنا/الآخر) من دون أفراط أو تفريط فكري أو عقدي أو فلسفي.

هذا الأمر جعل من النسق الثقافي عند كل مجتمع له خصوصية في تكوينه المعرفي، الذي يبدو أيضاً (استجابة لا شعورية لأنساق الثقافة المهيمنة، (ثقافة الآخر/ الغرب) و(ثقافة الآخر / الديني) من خلال عنصري (الثقافة والتحول) اللذان يطرحان التوجه الغربي من خلال تأثيره في العوالم العربية إلى استكشاف الآخر وثقافته، ولتحديد الأنا بمختلف أبعاده لا بد من وجود الآخر ((فوجود هذا الكائن داخل ذلك العالم وجود تصاعدي متفجر باتجاه غيره. فوجود (الآخر) يسهم في إنماء العالم. كما يدخل ضمن مصاديق الآخر كل ما هو غير الذات المعنية. والذات (المعنية) يمكن أن تكون هي الذات الإلهية أو ذات أي شيء في هذا الوجود، حيا كان أم جماداً؛ ومادياً كان أم معنوياً، والأمر حين يخص الإنسان سيكون المعني ذلك الإنسان بكل منتجاته سواء المادية أو المعنوية بما فيها الثقافة))^(١). وقد يرتبط مفهوم الآخر دائماً بمفاهيم مجاورة، خاصة في الدراسات الفكرية والنقدية، أبرزها: الأنا؛ الاختلاف؛ الثقافة؛ الحضارة؛ الاستشراق؛ العرقية؛ الأقليات؛ المركز-الهامش؛ الخطاب؛ الهوية. ويعرف مصلح النجار وآخرون ((الآخر أو الآخرون" بأنهم

(١) الآخر الديني في الشعر الأندلسي: حسنين عماد عبد الله، رسالة ماجستير: ٢.

فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو (الأنا)، فإذا حددنا هوية الأنا كان الآخر فرداً أو جماعة يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز وهو تمايز إطاره الهوية أحياناً والإجراء في أحيان أخرى^(١). يقسم بعض النقاد الآخر إلى ((الآخر الفلسفي أو الفكري، الآخر النفسي، الآخر الإبداعي، الآخر الثقافي "الديني، الشعبي، الحضاري")^(٢).

إن منشأ عملية الإنتاج الفني أساسه العلاقة بين الشاعر والآخرين أي المجتمع الذي حدده بالنحن عندما يكون الشاعر على وفاق معه، ومن خلال العلاقة بين الأنا (الشاعر) والآخرين (المتلقي)، يمكن أن يندفع الإنتاج الشعري إذ ((إن حالة نحن قد تتصدع فينجم خلاف عميق بيننا وبين أفراد الجماعة التي نتكامل معها، وعندئذ يتحول الموقف إلى أنا والآخرين بدلاً من نحن))^(٣).
اولا/ الآخر الغربي:

إن من سمات العولمة أن تظهر الثقافة الغربية على أنها الثقافة الكونية وفوق تاريخية، لتأخذ وجه السيادة والتمكن، وهذا لا يتصل طبعاً بتقديس الثقافة الكونية، بل يرتبط بالمصالح الغربية.

إن المجتمعات في العصر الحديث قد طُورت كثيراً من أسباب التنافس، لكن السبب الأكبر للتنافس هي النظرة المغلقة إلى نفسها وإلى غيرها، وأدى ذلك إلى زرع فكرة السمو والرفعة في الذات والدونية والانتقاص في الآخر^(٤)، ومفهوم المهمل الذي يستوجب وجود متن ونسق يمارس دوره في تهميش ما سواه، وبذلك يكون محور الحوار بين الأنا والآخر في البحث عن خصوصيته الثقافية والاجتماعية، إلا أن فضاء الآخر يحاول إقصاءه، ولا يعترف بهذه الخصوصية. أما الهامش فيحاول جاهداً الانفتاح على المتن مع مخاوفه من فقدان الخصوصية والسقوط في هاوية التبعية المرفوضة التي تقود إلى فقدان الهوية^(٥). الأمر الذي دعا في أغلب الأحيان إلى استدعاء الماضي والالتكاء عليه من الشعراء لبحث من خلالها عن خصوصية الأنا المتأخرة.

إن مظاهر العولمة العلمية والتكنولوجية أدت إلى هيمنة ثقافية^(٦) شاملة للآخر المتقدم الذي أنتج شكلاً من الأنساق التي اعتمد من خلالها على خلق التصور المشكل لوعي الآخر الذي يجد من نفسه متخلفاً وعليه أن يركب ركب التبعية والسعي خلف التقليد، الأمر الذي دعا أن تكون الخطابات الأدبية والفكرية والسياسية الغربية التي مثلت الذات والآخر تمثيلاً متحيزاً، إذ جعلت الذات في إطار من التعالي والفوقية في حين موضعت الآخر في إطار من الانتقاص والدونية عن طريق تشكيلات علاقة الأنا بالآخر، لأن صورة الآخر لا تشكل ((نتيجة المشاهدة والاتصال بل هي ثمرة وعي ومعرفة سابقين إنها تستدعي توافر مرجعية محددة القواعد واضحة الأركان تلك المرجعية منظومة متكاملة من القيم الجمالية والدينية والمعرفية))^(٧)، واستخدمت في ذلك آليات خطابية عديدة ممثلة للمرجعيات السياسية والاجتماعية والثقافية.

١/ الهوية (الذات العربية):

هي إحساس بأنني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم الآخرين - الآخر. فهي تشير إلى إبراز العلاقة التفاعلية بين الهوية بما تنطوي عليه من مقومات: كاللغة والدين والتاريخ المشترك، والوطنية وغيرها، أي كل ما يطبع جماعة

(١) الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، مصلح النجار وآخرون، الأهلية، الأردن، ط١، ٢٠٠٨.

(٢) الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨: ٣٧.

(٣) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف، دار المعارف، مصر، ١٩٥١م: ١٢٧.

(٤) ينظر: حوار الثقافة والقيم والمجتمعات الثقافية: عبد الله إبراهيم، ثقافتنا للدراسات والبحوث / المجلد ٥ / العدد السابع عشر ٢٠٠٨/ ١٤٢٩: ١١٥.

(٥) ينظر: الحوار مع الآخر، بين ثقافة في عصر الهامش وثقافة المركز العولمة، عزيز العكايشي: ١٦٧.

<http://www.unc.edu.dz/vf/images/revue-lanque108%20%20.pdf>.

(٦) الهيمنة Hegemony: وتعني فرض ثقافة معينة من الغالب على المغلوب بشكل ظاهر أو خفي، وتعود الهيمنة في مرجعياتها العملية إلى عصور غابرة، إلا أنها في عالمنا المعاصر أخذت أشكالاً براقاً بما يمكن أن تُمارس على أفراد وجماعات وحتى شعوباً دون مقاومة منهم بسبب الوسائل التي تتبعها الدول المهيمنة عبر شرعنة هذا الفعل وتسويقه بشكل مقبول ظاهرياً، وكان غرامشي هو من تحدث عن هذا المفهوم واصفاً إياه بأنه (محاولة ناجعة لتفسير قدرة السلطة الدائمة على تشكيل المفهوم الذاتي، والقيم، والأنظمة السياسية، وشخصيات الشعب ككل حتى بعد مدة طويلة من زوال المصدر الخارجي لتلك السلطة). الترجمة والإمبراطورية نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، دوغلاس روبنسون، تر: ثائر علي ديب، سورية - دمشق، دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٩: ٤٥.

(٧) أوربا في مرآة الرحلة-صورة الآخر في الأدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ١٩٩٥: ١٢.

بشرية ويميزها عن غيرها، والتي تحمل دلالتها من المحددات الأساسية لثقافة الأمة، وبين مختلف الفضاءات المجتمعية التي ينتمي إليها الفرد وبما يرتبط به من علاقات ويمارسه من أدوار لإشباع حاجاته وتحقيق ذاته.

الآخر متغير ومتنوع وأشكاله عديدة، والآخر بالنسبة للهوية العربية هو الآخر الغربي، لتختزل في معادلة الرجل الشرقي والرجل الغربي الناتجة من محاكاة الواقع والتماهي معه من خلال الحديث ((عن الذات العربية على قانون الهوية المهدد بالمعتقدات والتقاليد، والأفكار والسلوكيات، أي بتحديد ذات مغايرة عن باقي الذوات أو تنميط الأنا المخالف للغير، وقد يحدث هذا التنميط في الغالب عقدياً وثقافياً بشكل انعكاسي، فأصبحنا ننظر بموجبها إلى الغرب من خلال ثنائية الأنا والآخر، فلم يكن الأنا في مختلف مساراته الحديثة والمعاصرة، إلا ممجداً لهويته بشكل نكوصي متعال عن الحقيقة في علاقاته بالغير الذي كان بين موضوعه ويتمرس منزلته))^(١). والآخر بالنسبة للمتخيل الغربي ساكن جاهل وحشي. وهذا ما يؤدي إلى إظهار ظاهرة تدمير الذات عند المجتمعات الضعيفة نتيجة لعدم قدرتها على التوفيق بين التحول الاقتصادي والثقافي، الأمر الذي يحرك الشعور بعد كل دورة زمنية في التاريخ تبرز حاجة المجتمعات لتأكيد ذاتها، أو مراجعة انتمائها.

إن الهوية لها علاقة بالثقافة واللغة والانتماء والدولة والمجتمع ((إذ ارتبط مفهوم الهوية بالمسألة الثقافية، فيري بعض علماء السياسة والاجتماع والنقاد في الآداب والفنون أن أزمة الثقافة هي في الحقيقة أزمة الهوية))^(٢). ونسبي هذا الانتماء بما يدل على الهوية بصفته مضمون المواطنة ومفهوم الهوية، هدف المفاهيم السياسية الحديثة، برزت ضمن أطر من الروابط والمصالح المشتركة. الجغرافية، والتاريخ والمصالح المشتركة، هي من الروابط الأساسية وفي بعض الأحيان تعبر الهوية إلى أوسع من ذلك أو تتمحور على نطاق أضيق من ذلك. الهوية القومية أو الهوية الدينية أو الهوية العرقية أو الهوية الطائفية، هي نماذج للهوية الضيقة، ولكن هناك نموذج أوسع من ذلك عندما تكون الهوية جامعة لأكثر من قومية وأكثر من دين أو أكثر من عرق وأكثر من طائفة، وبهذا تتجاوز الهوية إطارها الضيق لتعبر عن المشترك الأوسع في الانتماء، وهي الهوية الوطنية التي تنتمي لجغرافية وتاريخ ومصالح مشتركة. الأمر الذي جعلنا نلاحظ المتفقين وشعراء تلك المدة على وجه التحديد، أن لهم عناية خاصة بالهوية مثل إثبات الذات وموقعها داخل المجتمع وكيف حافظوا على هويتهم مع تعدد الهويات دخل المجتمع بوجود الهوية العثمانية والبريطاني، ليكرر الشاعر انتمائه وهويته العربية أولاً والعراقية ثانياً وإن ابتعدت عن مركزها.

إن البحث في الهوية هو بحث مزدوج؛ إنه بحث في الهوية وبحث عن الهوية. وكلاهما يختلف عن الآخر في موضوعه ف((الهوية، بحث معرفي، أما البحث عن الهوية فبحث أيديولوجي غالباً. البحث في الهوية بحث صنع لهذه الهوية، ومتابعة لصنعها باستمرار، أما البحث عنها، فيعني أن الهوية منجزة ولكنها ضائعة يجب البحث عنها لاستردادها))^(٣). بالركون إلى المعطيات الأساس للنسق الثقافي ذو الطبيعة العربية في النظر للآخر، ((وبذرائع المحافظة على الأصالة والهوية ظهرت ردود أفعال مناهضة للتغيرات الاجتماعية والقيمية، ففي ظل توترات تجتاح العالم، وقوى إمبراطورية تريد إعادة تشكيله طبقاً لرؤاها ومصالحها، لجأت كثير من المجتمعات إلى الاعتصام بنفسها، وبقيمها، وبتقافتها، وذلك في رغبة ملتبسة من الحماية الذاتية))^(٤). وهذا ينبني من الحماس والاعتزاز بالذات ولا سيما الذات العربية المسرفة جداً من كونها تنتسب لأجداداً ملكوا الأرض في يوم من الأيام، من خلال الحماس والرغبة في الظهور والاندفاع والاعجاب بالذات عاملاً مهماً في بناء الشخصية لمواجهة الحياة، فضلاً عن تقبل المبادئ التي تتسجم في تعزيز هذه الصفات وتغليبها على غيرها مما يغرس في النفس ويستقر بالذهن الأمر الذي دفع الكاظمي إلى أن يعتز بذاته فيقول:

وترعرت بين أكرم قوم شمخوا عزة على الأقدام

(١) المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجزائرية، ٢٠٠٣م: ٨٣.

(٢) المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية: ٨٣.

(٣) نحن والآخر، محمد راتب الحلاق: دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧: ٥٣.

(٤) حوار الثقافة والقيم والمجتمعات الثقافية: ١١٦.

وتقبلت في حجور المعالي بين عز الأكاير والأفخام^(١)

ومما قاله عبد المحسن الكاظمي معتزاً بحسبه مفتخراً بأصله ونسبه ويعرويته وشاعريته وقد ضمن ذلك أبياتاً كثيرة وردت في ديوانه منها قوله:

ولأن فتشت عن شيمي واجلت الفكر في حسبي
لا ترى في الناس قاطبة مثل أُمي في العلا وأبي
أنا من قوم بيوتهم في العلا ممدودة الطنب

أما السيد محمد حبيب العبيدي فيفخر بهويته العربية التي رآها هي من سطرت الأمجاد وفتحت البلاد فيقول من قصيدة (الواح الحقائق)^(٢) كتبها في إسطنبول سنة ١٩١١م:

ولقد عاش الشرق دهرًا طويلاً وهو في مقلة الزمان ضياءً
تلك صحف التاريخ تشهد أنا خير نسل أقلت الغبراء
كم عمرنا الديار وهي خراب وملأنا الفقار وهو خلاء
وركبنا البحار وهي طوام وألفنا الأسفار وهي عناء
يوم لا دُق بالحديد تراب لا ولا شقّ بالبخر الماء
وملكنا بالسيف ملكاً جُساماً لم يشدّ مثل ركنه بناء^(٣)

إن هذه القيم الاجتماعية التي وظفها الشاعر في خطاب المديح، والفخر بالماضي التليد من قوله (مقلة الزمان ضياءً، وملأنا الفقار وهو خلاء، ركبنا البحار، ألفنا الأسفار، ملكنا بالسيف) تركز على منزلة العرب يوم كانوا أمة عظيمة، ومكانتها التي تشربت الأمجاد والسؤدد في عصر صدر الإسلام، فالمسألة التي يسوقها الشعراء إلى قصيدة المديح مسألة تاريخية وثقافية تتعلق بثقافة الصحراء وحياتها القاسية التي تفرض على الشاعر التغني بأمجاد أسرته وأجداده، فالمجد والسؤدد يصنعه الأجداد ويتغنى به من بعدهم من أجيالهم.

٢/ صورة الآخر الإيجابية:

في بداية القرن الماضي خرج الشاعر العراقي من شرنقة المكان والزمان، ليواكب اللحظة التي هو فيها، وأعلن وقوفه بعيداً عن السقف الديني والقومي إلى جانب الإنسان، يقول علي الشرقي من قصيدة نظر فيها إلى التطور الحاصل في الغرب والعالم الآخر وما أنتجوه من معارف وصناعات ليحث الشرق على أن ينظر إلى هذا الجانب المشرق منهم في قصيدة (مقال الناس أكثره محال ١٩٠٩م):

(١) الكاظمي: مهدي البير: ٢٠.

(٢) هي زهاء خمسمائة بيت في ستة وثلاثين لوحاً. ألفها في المنتدى الأدبي للشباب العربي في استنبول سنة (١٣٢٩هـ - ١٩١١م) إيقاظاً للرقود وشحذاً للهم وخدمة للعروبة والإسلام وكانت دولة إيطاليا قد أشهرت الحرب على الدولة العثمانية واستولت على طرابلس الغرب وكان الخلاف بين العرب والترك قد استحال حقداً ونفورا. ديوان محمد حبيب العبيدي (ذكرى حبيب)، جمع وتحقيق أحمد فخري: ٥.

(٣) ديوان محمد حبيب العبيدي: ٦-٧.

تماطلك	الأمانى	كاذبات	فلتلك	لا	عُرفت	ولا	المطال
مقيم	في	ضلالته	بفكر	لغير	الجهل	ليس	له
فلو	كان	السمو	لذي	محل	شمخت	على	الروض
أنوما	في	ضلال	الجهل	يا	من	تقشع	عن
رثيت	لك	الجسوم	مركبات	ويوشك	أن	يكون	لها
سرى	الداء	العضال	فيها	فأضحت	معللة ^(١)	وليس	بها
							اعتلال ^(٢)

فهو خروج عن النمط السائد ليشكل صورة جديدة للوعي بالأنساق المستحدثة التي واكبت دخول الآخر الغربي الى العراق وتخليص بعضهم من سياسة التتريك، والانصياع إلى المبادئ التي تتعلق بحق الشعوب في تقرير مصيرها. وهذا يعني نوعاً ما من التعامل مع الغرب، ويعني أيضاً نقضاً للمسلمات التاريخية، والنظر إلى الآخر بعين الريبة والشك. ولعله الشاعر الوحيد في العراق الذي خالف الآراء السائدة، ولحق نقول إن الزهاوي كان قد أشاد ببريطانيا قبل دخولها العراق، وحين دخلت ازداد إعجابه بها، حتى أنه تمنى فشل ثورة العشرين التي قادها رجال الدين والعشائر، وكأنه كان يرى في هذه الثورة النقيض لأفكاره وآرائه في التقدم والتجديد وهي في المآل الأخير عودة إلى الوراء. ولعل أهم قصائد الزهاوي، قصيدته المشهورة (ولاء الانكليز) التي نظمها (عام ١٩٠٩) يقول فيها:

وجدت	الانكليز	اولي	احتشام	اباة	الضيم	حفاظ	الذمام
فصادقهم	تجد	اخلاق	صدق	لهم	والصدق	من	شيم
إذا	بهم	احتى	المذعور	يوماً	رأى	منهم	له
وبات	على	فراش	الأمن	خلواً	ونامت	عينه	أهنا
أحب	الانكليز	واصطفاهم	لمرضي	الاخاء	من	الاتام	
جلوا	في	الملك	ظلمة	كل	ظلم	بعدل	ضاء
بلادهم	سمت	علما	فكانت	جمال	الارض	في	حسن
ترقت	في	حضارتها	فاضحت	على	العلياء	ضاربة	الخيام ^(٢)

ويمكن أن تلمس ذلك عبر نص كتبه محمد رضا الشبيبي رثاء لغرقى التيتانك عام ١٩١٢ فيقول:

امليكة	البحر	اسمعي	لك	أسوة	في	الأرض	كم
أنى	ينجيك	الحديد	وما	نجوا	بأشد	من	فولاذك
							المسبوك

(١) ديوان علي الشرقي: ٣٥.

(٢) الكلم المنظوم، الزهاوي، بيروت، ١٩٠٨م: ١٠٩.

يا بابل البحر الخضم سحرتنا سحرا أرى هاروت في تيتنيك
زعموا ضللت ولو أردت هداية كان المحيط بنفسه هاديك

ومن المفارقات الواضحة لظهور نسق المخالفة والمفارقة ما نجده عند بعض الشعراء الكبار الذين عرفوا بالولاء والانتماء والوطنية وحب الوطن من تطلعهم إلى الغرب والمقارنة بين الغرب والشرق فالشاعر الكبير الجواهري يقول من قصيدة (بين النجف وأمريكا نشرها ١٩٢١م):

أمريك يا بنت (كولمبس) لحبك وقع على الأنفس
صبوئت إليك وأين الفرات وأهلوه من بحرك الأطلس
حننا ولو كان في وسعنا سعيانا إليك على الأرواس
إذا آنس الصب ذكر الحبيب ففي غير ذكرك لم آنس
هواجس تدني إليك المنى ولولا المنى قط لم أهجس
واني وما بي حب الصخور أحن إلى صخرك الأملس^(١)

يلحظ في قصيدة الشاعر التناص مع قصيدة إيليا أبو ماضي التي يقول فيها: (لعينيك يا ابنة كولمبس). ليقف بعد ذلك الشاعر ليشكل انتقاله جديدة في اتجاه التأثر بالآخر الغربي من خلال عنوان قصيدته التي حملة عنوان (بم تصلح حالتنا الاجتماعية؟ ١٩٢٧م) التي يقول فيها:

علي أن أبدي رأيي وما علي إن خطي أو صوباً
فلنسأل الأمريك عن شأنها إن لديها (المنهج الأصوب)
بالأمس كانت في أضاليلها تخبط لا تسترشد المذهب
واليوم كادت بصناعتها تستعبد المشرق والمغربيا^(٢)

إن أكثر الصور الإيجابية في الشعر تتحدث عن تلاقي الشعوب بصورة سلمية لتتحدث عن الآخر، وقد تشكل صورة الآخر لدينا من عناصر انتقائية هي ما نريد ان نثبتها في اذهاننا عن ذلك الآخر.
٣/ صورة الآخر السلبية:

تتشكل صورة الآخر الغربي في أعين الشعراء من كونه ناكثاً للعهود وهي صفة ذميمة، فمن خصال العرب الوفاء بالعهد، والذي اتسمت به أغلب الحكومات نقضها للعهود ليشدد الشاعر على أن هذه الصورة السلبية التي تأثر بها العرب هي من الآخر الغربي مدة الانتداب فقول الشيخ المظفر:

(١) من قصيدة عارض بها إيليا أبو ماضي التي يقول فيها:
احب معانقة النرجس لعينيك يا ابنة كولمبس

ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه د. ابراهيم السامرائي، وآخرون، مطبعة الاديب بغداد، ١٩٧٣: ج ١/ ١٣٥.
(٢) ديوان الجعفري: ٥١.

يا	ماء	أنت	عهدت	البقا	لهذي	الورود
أعن	هوى	(الغرب)	فيينا	رويت	نقض	العهود ^(١)

وينعم الرصافي النظر في هجاء الغرب المستعمر والمستغل لثروات الشعوب، ليكشف صورته أمام من آمن بشرعية خطه وإنسانية مسعاه، فيصف المستعمرين بأنهم نخسوا الشعوب حقهم وإن ادعوا في دساتيرهم تحرير الفرد من الرق: إلى الله نشكو الأمر من مدنية تعارض في أوصافها الكذب والصدق وكم قد سمعنا الغرب تدعي بأشياء من بطلانها ضحك الحق فهم منعوا رق الأسير وإنما أباحوا أن يشمل الأمم الرق ألم تر في الشعب العراقي أمة من الأسر مشدودا في أعناقها ربق قد اختط فيه السيف للقوم خطة من العنف لم يمرر بساحتها رفق^(٢)

لا ينسى شاعر قضية العرب الأولى، وحقهم المغتصب في فلسطين، وموقف بريطانيا منها ومن باقي الدول العربية، ويندد بالصهاينة المجرمين، ويفضح حقيقتهم. ويظهر ذلك في إحدى خماسياته بعد أن وضعت ثورة العشرين (١٩٢٠) أوزارها يقول: (لندن) غنت وافلسطين لم تبرح على جمر الأسى راقصة (صهيون) إشراك وإحبولة وأنت تدري ما هي القانصة كم جاهدت مصر وكما أعدت أعولت فهل من البلوى غدت خالصة كل بلاد العرب كالتائر المذ بوح في أرجلها فاحصة لا تكمل استقلالها أمة وحدتها واهنة ناقصة^(٣)

يلاحظ المتأمل للنصوص مجمل شعراء حقبة الدراسة للصور والصفات التي رسموها لهذا الآخر الغاصب، أن هناك توافق بين هؤلاء الشعراء على هذه الصفات السلبية، ليشكل هذا التوجه نسقا تراتبيا في ذهنية الشاعر العراقي، ولعل ذلك يعكس السمات الأساسية لهذا الآخر. فيقول الشاعر محمد رضا الشبيبي: (رؤمة) مهلاً إن فعلتكم في الشرق فغلة أنزال وأقزام^(٤)

إن النسق يقوم على وظيفة الدلالة النسقية التي ترتبط بعلاقات متشابكة، نشأت مع الزمن لتتحول إلى عنصر ثقافي آخذ في التشكل، فيقول صالح بن عبد الكريم الجعفري في وصف الجانب السلبي للآخر الغربي من قصيدة (ما السجن عارا على الأبطال عام ١٩٣٠م) فيقول:

(١) ديوان الشيخ المظفر: ٣٦

(٢) ديوان الرصافي:

(٣) خماسيات روضة الحزين: ١٣.

(٤) ديوان الشبيبي، عنيت بنشره، جمعية الرابطة العلمية الأدبية، القاهرة، مطبعة التأليف والترجمة والتغيير، ١٩٤٠م: ٢٢.

سوق التجارة في بغداد كاسدة لكنها نافق في سوقها الكذب
لو صوّر الكذب قرداً كان أوسطه في لندن ولدينا الرأس والدنّب^(١)

لكساد التجارة سبب فقد احتكرت إنجلترا التجارة مع العراق ونقل البضائع من العراق وإنجلترا، وظل الوضع هكذا في ظل حكم السلطان عبد الحميد^(٢)، ليمثل هذا الشكل جل الشعراء في الدفاع عن هذا التصور للغرب، ونجد أيضاً عند الشاعر محمد صالح بحر العلوم الذي نحى منحى الشيخ كاشف الغطاء في وصف الصورة السلبية للآخر الغربي المتمثلة (بلندن) المحتل من خلال صك الانتداب وطمعه الشديد لنهب البلاد والعباد فيقول بقصيدته التي حملت عنوان (معاجز لندن لنهب النفط ١٩٣١م):

قالوا: (المعاجز) قلت حرفه عاجز بعثت لنشر الخلف والخذلان
الله يشهد أنهم دسائس لتضارب الآراء والأذهان
حيكت لتصديق الصفوف وصرفها عما يحاك لها من العدوان
هذي معاجز لندن ! في أمّتي ظهرت لنهب النفط في أوطاني^(٣)

((نظمت هذه الرباعية عام ١٩٣١م على إثر إشغال الناس بالتحدث عن كرامات ومعاجز الأولياء وصرف أنظارهم عن اتفاقية النفط البريطانية وغيرها من المشاريع الاستعمارية))^(٤).

يحيل النص عند الشاعر محمد ناجي القشطيني إلى كشف مكر المحتل، ليدعوا العرب ولا سيما الشباب منهم للثورة على هذا الغاصب الغاشم والقهر منه ليكون الشكل العام المرتجى من الشباب والنشء العربي الذي ينبغي له أن يحمل روح العروبة والوطنية فيقول:

أيها النشء أدركوا أوطانكم فهي حيرا بيد المختصب
فإذا بالسلم لم ترجع لكم فأعيدوها بحد القضب!
واغسلوا العار بسيل من دم فهو لم يغسل بماء السحب!^(٥)

هذه الدعوة الصريحة تنتهي بتشكيل الصورة الحقيقة في ذهن الشاعر عن الآخر المتمثل بالغرب فيقول:

نفحة من نفحات المصطفى جعلت منه كريم النسب
غرس العدل بأعلى أوربا حينما كالوحش كان الأوربي
فجنى الأحفاد منه رطباً آه: من لذة ذاك الرطب؟
اسألوا الحمراء عن آثاره واسألوا عنه بطون الكتب؟^(١)

(١) ديوان الجعفري: ٤١.

(٢) ينظر: تاريخ العرب الحديث: ٨٤.

(٣) ديوان بحر العلوم: ٥٤/١.

(٤) ديوان بحر العلوم: ٥٤/١.

(٥) اللهفات، محمد القشطيني: ١٥.

ويهجر صوت الشاعر محمد صالح للمواقف السلبية المتشكلة من الوعي لصورة الآخر الغربي السلبية بنكت الموائيق والعهود في قصيدة (أين الموائيق يا عصبة الأمم عام ١٣ تشرين الأول ١٩٣٦م) فيقول:

يا شرق سلّ (عصبة) ترنو لها الأمم أين الموائيق والأيمان والذمّ
هذي فلسطين تشكو عسف ظالمها وقلبها بسعير الغيظ مضطرب
تبكي على أمل زالت نضارته من الوجود وقد أودى بها العدم
فيطربُ الخصم إعجاباً بأنّتها كأن أنتها في سمعه نغم^(٢)

ليندد مرة أخرى بعصبة الأمم الظالمة الكاذبة بعدوانها على الحبشة في قصيدة (عدوان الطليان على الحبشة ١٩٣٦م) فيقول:

رأيت ((فاشية الطليان فاشية الطغيان مسنودة من عصبة الامم))
قال الحقيقة (لفينوف)^(٣) فانصدعت بها (رؤوس حكومات) بلا ذم
تبكي نفاقاً على (الأحباش) في مقل راحت تغازل غزو (الفتاح) النهم
لا خير في (عصبة) تذكي طبيعتها حرباً عواناً وتصلي الناس بالضرم^(٤)

يقول الشرقي عند احتلال الايطاليين لطرابلس الغرب وبرقة وهي قرية صغيرة لا تعرف من الحرب شيء يقول:

ما لرُوما فلا استوى عرش رُوما قتلت ذيلها وعجت نباحا
جبت عن نضال كل قوى فأغارت على الزوايا إكتساحا
نطحت (برقة) وبرقة واحات من النخل ما عرفن النطاحا^(٥)

ليظهر النص جبن الايطاليين وخستهم في الهجوم على واحة صغيرة لا تعرف سوى النخل والزروع ليحتلوها فهو يرسم صورة واضحة عن مدى البربرية لروح المستعمر ليقنص المدن والقرى التي لا شأن لها بالحرب.

ثانياً/ الدين

هناك علاقة جدلية بين الثقافة والايولوجيا من خلال رصد وتصنيف الوحدات الأيديولوجية المتمفصلة في المدونة الشعرية، التي تعتمد أساساً على الحقول الدلالية، فالعناصر الأيديولوجية المتواترة في النص، تحدد انطلاقاً من الربط بين الأنساق الأيديولوجية التي تبدو مختلفة مظهرها، غير أن النواة الأساسية للإيديولوجية، تبقى المعيار الأساس لتحديد هوية هذه الوحدات، وهو معيار التناقض، وإن الدين والسياسة صنوان لا يفترقان، وللنشأة الدينية الأثر الكبير في تحديد توجه الشاعر من جهة النظرة للتاريخ والآخر المختلف مما يتيح لنا مواكبة الأنساق الثقافية وارتحالاتها.

يعد الدين من أهم مقومات مجتمعاتنا العربية الإسلامية، وهو من المسائل الحيوية في حياتها، ومنذ أن فتح العثمانيون بلاد العرب، وانضوائها تحت سيادتهم، عدوا أنفسهم وريثاً للخلافة الإسلامية وامتداد لها، فأخضعوا كل الحياة بمختلف نواحيها لمبادئ

(١) اللهفات، محمد القشطيني: ١٥.

(٢) ألقيت هذه القصيدة في الاجتماع السياسي العام الذي عقده النجفيون في صحن الامام علي (ع) يوم ١٣ تشرين الاول ١٩٣٦م الموافق ٢٧ رجب ١٣٥٥ هـ احتجاجاً على حالة فلسطين المنكوبة بالاستعمار الصهيوني. ديوان محمد صالح بحر العلوم: ١٢٣.

(٣) (لفينوف) وزير خارجية الاتحاد السوفيتي آنذاك.

(٤) ديوان محمد صالح بحر العلوم: ١١٦.

(٥) ديوان علي الشرقي: ٥٨.

الشريعة الإسلامية^(١). واحترموا الدين، وأجلوا علماءه، فكانت دولتهم دولة دينية تستند أحكامها إلى الشريعة الإسلامية الغراء، ورعاياها يخضعون إلى نظام الملل العثماني.

ولعل أبرز ظاهرة تشد الدارس لنتاج أي أديب بعد الجوانب الفنية، هي الاتجاه الديني والعقدي، أو الانتماء المذهبي، وانعكاساته الفنية ودلالاته على عقيدة الأديب ومذهبه، والذي يتجسد بوضوح في الشعر العرقي، على اختلاف أديان الشعراء ومذاهبهم ومشاربهم الدينية، فالموروث الديني يندرج ضمن المرجعيات الثقافية للشاعر العراقي في العصر الحديث، التي تأثر فيها وعمل على استثمارها في خطابه الشعري، ذلك لما يحمله التراث الديني من تأثير بارز في المتلقي، فإن حضور الأفكار الدينية في فضاء النص الشعري يكون لها تأثير مباشر في المتلقي؛ لما للدين من حضور في الوجدان الإنساني بعامة.

بمعنى النظر في كيفية تمثل الأبنية اللغوية للأنساق الفكرية الأيديولوجية المتمثلة في النص؛ أي البحث عن تلك المرجعيات الخارجية التي تساعدنا على إعطاء دلالة ومعنى للنص الشعري من جهة، ومن جهة أخرى تحليل الأنساق النصية الداخلية التي تحمل دلالة فكرية إيديولوجية يحاول النص بثها للمتلقي، هذا ما يجعلنا نعتقد بأن هذه العلاقة اكتنفها كثيراً من الغموض واللبس، وحتى الاختلاف في آرائين كثيرة، ذلك أن بعض الدارسين اعتمدوا في التحليل على تشخيص الأنساق الخارجية، باعتبارها مرجعيات دلالية نهائية تكتفي بإعطاء معنى نهائياً للنص الشعري من خلال توظيف بعض المصطلحات، باعتبارها حاملة لدلالة ومكتفية بذاتها.

يعرف التهانوي الدين بأنه: ((وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الإصلاح في الحال والفلاح والمال، وهذا يشمل العقائد والأعمال، ويطلق على ملة كل نبي وقد يخص بالإسلام كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢)، ويضاف إلى الله عز وجل لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منه و إلى الأمة لتدينهم به و انقيادهم له))^(٣). يمكن تلخيص القول بأن الدين هو وضع إلهي يرشد إلى الحث في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات.

ومن التعاريف في الثقافة الغربية للدين تعريف دوركايم E. Durkheim. ((الدين نسق موحد ومتكامل يضم مجموعة العقائد والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة لتلك العقائد والممارسات، تمارس في مجتمع صغير أخلاقي يسمى الكنيسة))^(٤) فمن خلال التعريف نجد أن الدين عبارة عن نسق أو نظام من العقائد والعادات، أي إيمان جماعي تعتقده المجتمعات تحت إطار ما يسمى الكنيسة.

من خلال التعريفات السابقة للدين في الثقافتين العربية والغربية نستنتج أن الدين هو عبارة عن نسق أو نظام يضم مجموعة من العقائد والأعمال يدين بها كل مجتمع.

ومن خلال التركيب الديني العام والمذهبي داخل الديانات الخاصة في المجتمع العراقي خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لم يكن العنصر العربي وحده يتكون منه المجتمع العراقي، فقد كانت هناك عناصر أخرى غربية هاجرت إليه من إيران والهند والأفغان، وأناخت ركناتها فيه إلى جانب العنصر الحاكم من المماليك والأتراك. يضاف إلى هؤلاء جميعاً بقايا الكلدانيين والآشوريين والسريان من شعوب العراق القديمة ثم العنصر الكردي الذي يمثل القومية الثانية من جهة العدد، وكان يستقل بالجبال الشمالية قريباً من حدود فارس^(٥).

(١) ينظر: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أنور الجندي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م: ٣٤.

(٢) آل عمران: آية ١٩.

(٣) كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د، ط ١٩٩٦: ٨١٤.

(٤) النظام الديني والمؤسسة الدينية، غني ناصر حسين القرشي، مقال، ٢٠١٧، ساعة ٣٠:٠٩، الموقع الالكتروني

<http://www.vobylon.edu.iq.net>

(٥) ينظر: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، إبراهيم الوائلي: ٧٤ - ٧٥.

وعلى الرغم من التعددية الحاصلة في المجتمع العراقي فإن الحاكم هو العنصر العربي والمسيطر؛ لأنه يمثل الأكثرية من عموم الشعب ويمتلك المقومات الأساسية التي تدعمه مثل اللغة الإسلامي. يبدو أن هذا الطابع هو طابع أقرب إلى البداوة منه إلى المدنية والسبب يعود الى كون النثل البشري للعنصر العربي كان عشائرياً يتقاسمه البدو والزراع^(١).

أ/ الهوية الدينية (الإسلام):

إن ما يقتضي الحال من أمر أن نعي مدى الحاجة التي دعت الشعراء إلى الوقوف على مفصل الديني الإسلامي من أجل استجداء الهمم وشحن النفوس للدفاع عن الدين الإسلامي أمام المحتل الغربي ولكن الحقيقة هي دعوة سياسية الغرض منها حماية الحكم العثماني الذي تبنى الدين الإسلامي، ولم ((يكن أهل العراق يعرفون في ذلك الحين شيئاً عن المفاهيم السياسية الحديثة كالوطنية أو القومية أو الاستقلال، بل جل ما يشغلهم هو الإحساس الديني المتمثل بالتعصب المذهبي. ومن هذا انهم لم يكونوا يعتبرون الإيرانيين أو الأتراك أجنباً هدفهم احتلال البلاد والانتفاع بخيراتهم، إنما كان كل فريق ينظر إلى الدولة التي تنتمي إلى مذهبها كأنها حامية الدين ومنقذة الرعية))^(٢)، المنظوي تحت مفهوم وحدة المصير الذي لم يكن يسمح عشية تعرض الدولة المسلمة لخطر الاغتيال الكافر بأكثر من ذلك يقول الشبيبي في هذا:

قوم من العرب وخز النحل حظهم وحظ قوم سوانا الأري والعسل
عند المغانم لا ندعى، ويفدحنا من المغارم ثقل ليس يحتمل
تأبى الحوادث إلا أن نملككم ولا . ودين التآخي . ما بنا ملل
أين الرهين بأموال لنا ذهب ومن يقيد بإخوان لنا قتلا
إما شهيد معلّى فوق مشنقة أو موثق بحبال الأسر معتقل
يا من بطل بني عثمان قد نشأوا أضحيتم، ان ظل القوم منتقل^(٣)

يعمل النسق المضمّر على استلام الأثر التاريخي للدين، من هنا يتبين أن الشاعر لم يوظف الموروث الديني صدفة، وإنما وعى هذا التراث واستلهمه، وتفنن في اتخاذه وسيلة يعبر من خلالها عن مشاعره وعواطفه وانفعالاته، فمن خلال إثبات الهوية الدينية يستعرض السيد عبد المطلب الحلبي تاريخ الأتراك في نضالهم من أجل العقيدة، وأن يدعو العرب لمناصرتهم في صد الزحف الكافر الذي يهدد الخلافة التي بدورها هي الأخرى التي تمثل الهوية الإسلامية واستمرارها ويقائها الأمر الذي دفعه لاستنهاض الهمم والوقوف مع الجانب التركي من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية فيقول:

رفقا بإخوانكم يا عرب إنهم لم يغصبوا قبلها حقاً لكم وجبا
ماذا الذي قد نقمت منهم وهم في أول الدهر شادوا للهدى قبا
قد صحّ إسلامهم شرعاً فكل فتى يرى البراءة منهم ضلّ وانقلبا
من كان يزعم أن الترك قد رفضوا في دورهم لغة القرآن قد كذبا
هم الذين أقاموا الدين في قضب في حدها عاد حبل الكفر منقضباً^(٤)

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٢١. وينظر: التطور الاقتصادي الحديث في العراق، محمد لمان حسن، بيروت: ٥١-٥٢.

(٢) لمحات اجتماعية، علي الوردي، دار كوفان، لندن، ط٢، ١٩٩٢م: ١٣/١.

(٣) ديوان الشبيبي: ٢٧.

(٤) - شعراء الحلة، علي الخاقاني، النجف، ١٩٥٢، ج٣/ ٢٠٩.

ومن أبلغ الدلالات النسقية التي اتكأت على المفهوم السياسي الذي يقرأ من ورائه المراد من الدعوة إلى الوقوف إلى جانب الأتراك ومناصرة الدين الإسلامي والحفاظ عليه وعلى ديمومته، ويعرب عما يجول في خاطره من مواقف وآراء، ويمرر عبرها أنساقه الثقافية وغاياته المضمرة، التي قد تتسم بالنقد السياسي أو الضدية الثقافية أو المغايرة الدينية أحياناً. ليدل على ذلك ما قاله الشاعر محمد حبيب العبيدي الذي شارك بالتعبئة للإطاحة بالاحتلال البريطاني عبر النسق السياسي من خلال الدين في موشح قال فيه:

يا الغرب جئت شيئاً قسرياً

ما علمنا غير الوصي وصياً

قسماً بالقران والإنجيل

ليس ترضاً وصايا لقبيل

أو تسيل الدماء مثل السيول

أفبعد الوصي زوج البتول

نحن نرضاً بالإنكليز وصياً

.....

قد ظلمنا العراق يا ساكنيه

إن دمع النساء لا يجديه

حين نبكي السبطين أو نبكيه

أفمن بعد المجتبي وأخيه

نحن نرضى بالإنكليز وصياً

.....

اشهدوا يا أهل الثرى والثريا

قد ابت شيعه الوصي وصياً

لست إلا مزوراً أجنبياً

فلماذا تكون فينا وصياً

....

لم تكن يا ابن لندن علوياً

هاشمياً ولم تكن قرشياً

من بني قومن ولا شرقياً

فلماذا تكون فينا وصياً^(١)

إن تعمق الوعي بالآخر في حركة الشعر العراقي وجد سبيله من خلال فهم الدين الإسلامي الراكز ((في أذهانهم بعض الحقائق الدينية، يرغبون في إثباتها، أو برنامج حزب سياسي يودون إعلاء شأنه أو هم وطني يريدون فرضه.. فهم لا يجسرون على رؤية وطنهم أو حزبهم أو عقيدتهم في ضوء النظرة الشاملة. وإن ثمانين بالمائة من جميع التاريخ المدون لتمجيد جلائل أعمال الملوك

(١) مقدرات العراق السياسية، محمد طاهر العمدي، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٢٥: ج ٣ / ٢١٩ - ٢٢١.

والكهنة^(١)). وهذا ما يمكن أن يحمله النسق من مضمراته من خلال استخدام فكرة العقيدة والوصي للدلالة الراكزة والقارة لدى السواد الاعلى من أبناء العراق.

إن فكرة الولاية والوصاية مرهونة بشخص الإمام علي عليه السلام من خلال النصوص الدينية المروية عن النبي الأعظم محمد (ص). بعد القصيدة وثيقة تاريخية، بل هي تاريخ، فهي تدخل في شعر الوصف التاريخي وهي تحاكي أحداث مرت عبر ما يزيد عن ألف عام لتحرك الساكن من فهم الشعور والطبائع للمجتمع العراقي.

إن النزوع الدين هو الطابع الغالب في المجتمع العراقي الذي ينبأ بعاطفته الجياشة تجاه المعتقد الديني الإسلامي ومن ثم نجح الشاعر الذي خبر ما للمذهب الجعفري من أثر في نفوس المجتمع العراقي، لينطق من المفصل المهم في هذا المعتقد ألا وهو الوصاية ومن كون الوصي الوحيد على العباد هو الإمام (علي عليه السلام) كما جاء في الأثر من نص التتويج في بيعة الغدير على يد الرسول(ص). فيقول محمد حسن أبو المحاسن:

يأبى لنا دين النبي مذلة	فامضوا على دين النبي وآله
إن السعادة في الحياة لمفتد	شرف الحياة بنفسه وماله
عيش الذليل هو الممات وموته	بالعز عين حياته وكماله
عصر التمدن عاد أشبه سيرة	بالاعصر الولي بكل خلاله
حب التملك والتغلب غالب	والعدل أشبه بالسراب وآله
يسطو القوي على الضعيف فإن شكا	ألما فلا أحد يرق لحله ^(٢)

لقد ثوى التراث الديني، بوصفه مصدرا مهما من مصادر الإلهام الشعري، يقول أحد الدارسين ((لقد اتخذ الشعراء من الدين غرضا لإضرام نار الحق على الكفار الباغين. فأى خطر أعظم من هذا الخطر. وأية بلية أشد من هذه البلوى^(٣)). يعالج الشاعر من خلال المد الثقافي عبر السنين المستقبل والتحامه بالماضي.

ويهتز الشاعر محمد علي اليعقوبي لهذا الخطب الأليم، فراح يندب العرب المسلمين للحرب. ويحرضهم على القتال حتى يصونوا هذا الدين، وما يحرك هذا الشاعر العاطفة التي شكلها المضمير من خلال الانتماء الى الثقافي والجذر الذي يحرك الساكن من خلال فهم الوجود الإنساني وانتمائه ليسوغ له هذا الجذر الدفاع عن الدين في ظل الاحتلال التركي المسلم ونبد الاحتلال البريطاني الكافر. فهو دفاع عن الدين من تصور قار وهو أن النجاة تكمن بأن يدفع عن العراق أذى الإنجليز الذين أرادوا له الكيد والضلال:

ما آن أن تنهض فرسان العرب	فقد دنا منها العدو واقترب
يا غيرة الله انهضي فقد غدا فيء	الهدى بين الأعادي منتهب
ويا ذوي المجد وابناء العلى	ذوبوا عن الشعب الكريم والنسب ^(٤)

ويسكن في عمق النص ما يضمه الشاعر من طاقة الانتماء الديني التي يختزنها في لا وعيه، من خلال (غيرة الله)، (الهدى) بهذه الحدة، يكشف عن الطاقة المرتبط بالدين، ليأتي في سياقها ذكر (النهب)، لتعبر عن مضمره النسقي، وما تختزن روحه من طاقة

(١) مباحج الفلسفة، ديورانت، ترجمة احمد فؤاد الاهواني، تقديم: ابراهيم بيومي مذكور، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠١٦م: ٧.

(٢) ديوان ابو المحاسن، ١٧٧.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، د. رؤوف الواعظ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، سلسلة الكتب الحديثة، د.ط، ١٩٧٤: ٢٧.

(٤) ديوان اليعقوبي، محمد علي اليعقوبي، مطبعة النعمان - النجف الاشرف، ط١، ١٩٥٧: ١٨٣/١.

العنف الديني المتصل بشكل من الأشكال بالعنف الثوري، ليجنح لاستخدام (الذوب) يؤشر غلبان الروح الدينية التي تسيطر على شاعرنا، وتجعله داعياً إلى الثورة الدينية الشاملة من خلال استدعى مجد الأمة بنداؤه (أبناء العلى).

ب/ باقي الديانات السماوية:

على الرغم من أن المسلمين يشكلون غالبية المجتمع العراقي، من السنة والشيعة، فإن هناك جماعات دينية أخرى تشكل أقليات موزعة في مناطق مختلفة في العراق، منهم المسيحيون واليهود والأزديون والكاكائية والصائبية. ومع الديانات السماوية الثلاث: الإسلام والنصرانية واليهودية، عاشت في العراق ملل أخرى كانت فيما يبدو عاجزة على أن تترك ظلال وجود حي في الحياة الدينية^(١). لتحدد من خلالها الهوية التي تشكل النسق العام لكل شاعر بحسب الانتماء الديني والثقافي.

فالدولة العثمانية احترمت الأديان، واعتبرت الدين الإسلامي دين الدولة الرسمي، وعدت منصب الخلافة أعلى منصب رسمي وديني يليه منصب شيخ الإسلام، الذي يضبط تصرفات الخلفاء، وبفتوى منه يثبت الخليفة أو يخلعه، ثم يأتي بعده القضاء وقد حكموا بالمذهب الحنفي، وكان في الوطن العربي قضاة حكموا بالمذاهب الأخرى؛ إذ تركت الدولة حرية المذهب، وكان هؤلاء أحكامهم نافذة لا ترد، وإلى جانبهم المفتون^(٢).

إن الهوية لها ما يدفعها بالمد الثقافي بحكم أنها تستمد جذورها عبر قرون طويلة من تاريخ الأمة العربية، فما يجمع العرب مسلمين ومسيحيين أو عقائد أخرى هو التاريخ والثقافة، فمن الأصوات من تريد الانغلاق على أصولها والعودة إلى ما قبل الفتح الإسلامي وهناك من نازعته التأثيرات الغربية وشكلت طروحاته وواكب روح عصره، ولكل أمة ثقافة تعبر عن كينونتها، وتعكس طبيعتها، وتسجل عطاءاتها المتراكمة عبر التاريخ الطويل، فتجعل منها أمة ذات خصوصيات تميزها عن الأمم الأخرى. وكذلك هي الثقافة في تميزها عن الثقافات السائدة، سواء في الزمن الواحد، أو في أزمنة متطاولة، وإن كانت تأخذ عنها، وتقتبس منها، وتتالقح معها، وتندمج فيها، فتتقارب، وتتجاوز، وتتفاعل، فتكتسب قوة في المناعة، وقدرة على التناغم مع البيئة، وعى التكيف مع المحيط الإنساني العام. وتلك هي طبيعة الثقافة لدى أي أمة من الأمم، وفي كل عر من العصور.

فالشاعر يساوي بين الناس إذ لا فرق بينهم كما نص الدين الإسلامي، فالشاعر شاعر الإنسانية التي لا يحددها مذهب أو دين معين، بل هو مهتم بكل ما هو إنساني؛ لأن مادة أدبه الرئيسة التي يُعيد صياغتها بطريقته الفنية الخاصة وكأنه ينفخ الروح فيها، فالشاعر الرصافي يجسد هذا المضمون من خلال اهتمامه بالأرمن وذلك عندما نظم قصيدته "أم اليتيم" التي تجسد واقع الأرمن في زمنه فيقول:

أ	مريم	مهلاً	بعض	ما	تذكرينه	فإنك	ترمين	الفؤاد	باسهم
أ	مريم	إن	الله	لا	شك	ناقم	من	القوم	في قتل النفوس المحرم
أ	مريم	فيما	تحكمين	تبصري	فان	أنتِ	أدركتِ	الحقيقة	فاحمي
فليس	بدين	كل	ما	يفعلونه	ولكنه	جهل	وسوء	تفهم	
لئن	ملأوا	الأرض	الفضاء	جرائم	فهم	أجرموا	والدين	ليس	بمجرم ^(٣)

(١) في شرقي الموصل تقيم فئة عرفت باليزيدية وهي تعتنق ديانة تزعم بأنها سماوية جاء بها يزيد بن معاوية من لدن الرسول الأعظم. ينظر: اليزيدية، صديق الدملوجي، مطبعة بغداد، العراق، ١٩٤٩م: ١٦٤.

(٢) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، خليل اينالجيك، ترجمة: محمد م. الأرنؤوط، دار المدار الإسلامي – دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، ط ١، ٢٠٠٢م: ١١١.

(٣) ديوان الرصافي: ٤٦.

ينكشف هنا البعد المضمّر في البعد الديني، إذ يجعل من ذكر الرمز الديني المتمثل بالسيدة مريم، مدخلا للحديث عن مضمرة المتمثل في مدح اتجاهه الديني ومبنياته العقائدية، باستعراض الديانات الأخرى إنَّ الشاعر الرصافي في نصه هذا يتنازل)(عن حواجز الدين واللغة ليقف في صف الأرمن وكأنه يؤمن بوجود تحرير الروح واطلاق سرحها من قيود التعصب وهو بذلك يقدم الجنس الإنساني على الفواصل المحلية التي تفصل بين أفرادهم وتفرق بين وحدته أو قل إنه كان يتمنى أن تتحقق وحدة هذا الجنس على أسس من الأخوة والتعاطف فلا يكون هناك أرمني وتركبي بل يكون الوئام والتجانس التام بين الأجناس والأمم والشعوب^(١)). فيقول الزهاوي من قصيدة (أكل أو مأكول) التي يجمع فيها بين أهل الديانات جميعا ليصور لنا مدى التأخي بين أبناء المجتمع المبني على قبول الآخر فيقول:

إنما	الناس	إن	نظرت	إليهم	أكل	في	الحياة	أو	مأكول
هذه	منذ	كانت	الناس	ناساً	سنة	الله	مالها		تبديل
أضل	عن	منهج	الصواب	بنو	شذ	رق	وهذا	الضلال	خطب
ما	أراد	القران	إلا	هداهم	وكذلك		التوراة		والإنجيل
أتراهم	ثابوا	إلى	الرشاد	كلا	ثم	كلا	ما	ثاب	إلا
									قليل

ينطلق الشاعر في نصه من الموضوعة الدينية؛ لنقد الخطاب الديني في عصره بشكل عام، من خلال عد مجمل الديانات السماوية هي ديانات أنتت لمنفعة الناس وجعلهم على الخط المستقيم فللإنجيل والتوراة المكانة نفسها التي حظي بها القرآن، ليكشف عن مضمرة النسق المائل بصحة الدين الواحد، فالديانات كلها سماوية فلا فرق في أصل المنهج الإلهي من جهة نصوصه القرآنية هكذا هو النسق الحقيقي الذي تشكل منه وعي المثقف العربي الذي خلفته القرون الطويلة منذ بداية الإسلام الذي دعا إلى قبول الآخر والتعايش معه على كونه فرد من أفراد المجتمع.

للقبول حظ فللمجابهة حظه الأكبر من الدفاع عندما يكون ذلك الآخر قادم من الخارج ليزع الفتنة وتشويه معتقدات الآخر المتمثلة دعوات التبشير وغيرها، فيقول الشيخ المظفر من قصيدة قالها في صدر كتاب أرسله إلى صديقه السيد موسى بحر العلوم وذلك عام ١٩٢٦م:

ولم	يزل	وهو	حي	يموت	فيك	وينشُر
لقد	(تهوّد)	دين	إذا	سواه	(تنصّر) ^(٢)	

إن الثقافة الدينية بوصفها مرجعية ثقافية استند إليها الشاعر العربي عموماً، واتخذ منها سبيلاً للتعبير عن غاياته وأغراضه المختلفة، وتوارى خلفها مضمرة النسقي الذي عملت الثقافة على تمريره عبر جماليات الخطاب الشعري، فهيمنة النسق الديني على وعي الشاعر فرض عليه إنتاج خطاب شعري متساوق مع النسق الثقافي الديني المهيمن ومتأثر بثقافة الشاعر الذاتية، لذلك برزت خطابات الشعراء محملة بالهيمنة الدينية، ففي البيت إشارة إلى حملات التبشير المسيحي التي بدأت تغزو مناطق جنوب العراق يومذاك برعاية الأجانب العاملين في الدولة بصفة مستشارين. ولكن لبعض الأعلام أمثال الشيخ البلاغي والشيخ حبيب آل إبراهيم العاملي موقف مشرف في ردّ تلك الحملات، مما يشيء كون الأرض العربية والقومية عربية لكن الدين للإنسان نفسه، فالعربي يولد عربياً ولا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يكون غير ذلك، لكنه إذا ولد مسلماً أو غير مسلم يمكنه أن يعتنق الدين الذي يريد، فالواقع الثقافي المتغير

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر: ٦٧ - ٦٨.

(٢) ديوان المظفر: ١٣٥. (تهوّد): إشارة إلى مطابقة اسم المرسل إليه لأسم النبي موسى(ع) صاحب الديانة اليهودية. وتنصر: دان بالنصرانية، وفي البيت إشارة إلى حملات التبشير المسيحي.

يفرض التغيير على الفرد ولهذا المنطق أسباب تستدعي هذا التغيير الأمر الذي دعا الشاعر الخوف إلى الوقف بوجه مثل تلك الدعوات التي تسير مع أفكاره وميولاته.

ومما يقف عنده الشيخ المظفر في غالب قصائده التي يقولها في المراثي وخصوصاً مراثي أصحاب العلم والفضيلة الوقوف عند أصحاب الديانات الأخرى ففي مراثيه التي قالها عند وفاة الشيخ جواد البلاغي عام ١٩٣٣ م قوله:

خلفت دين الهدى ينمى خطاك وما خلفت من أحد يقفوك فانتظر
نامت لنومتك (العهدان) عن كل فأسهرت أعين الآيات والسور^(١)

وتتبعني الإشارة إلى أن الشيخ جواد البلاغي وهو من أكابر علماء عصره، عرف بمواقفه في مقارعة حملات التبشير الصليبية واليهودية التي حاولت أن تجد لها موضع في أوساط الفقراء والمساكين في جنوب العراق^(٢). الذي عمد لمجابهة أصحاب الديانات الأخرى ففي النص إشارة لذلك ف(العهدان) (القديم والجديد): وهي مجموعة الأسفار المقدسة عند المحن، وفي البيت إشارة إلى نشاط البلاغي للرد على الأسفار ومناقشتها.

لينح الدكتور عبد الرزاق محي الدين منحى مختلف بالنظرة للآخر من تصوره القائم على التساوي بين البشر دون الدين الذي شكل هوية المغيرة في الدين المسيحي:

أرى دين المسيح مثل دين محمد ولكن هذا الاختلاف لمن دانوا
هما شرعاً دين المؤاخاة بيننا فكل بني الإنسان في الأرض إخوان^(٣)

فللتعايش السلمي صورته الرحبة كون ان الخلط يتجانس ليشكل نسق الإخاء الذي نتج عنه التعايش السلمي بين الديانات وهذا ما كفله الدين الإسلامي لأصحاب الديانات الأخرى.

الخاتمة:

اعتماد الشاعر على العلاقة التي تربط صورة العالم بين الواقع والدين، عن طريق جعل التعبير دالاً على موضوعة التحفيز والانتماء، الذي يعبر به عن ضالته الفكرية المرتبطة بنزوعه الإنساني وامتداداته الوجدانية؛ وحتى تظهر هذه العلاقة، لابد من الوعي بأن النص الإبداعي هو الموضع الذي تتكشف فيه الذات بكل أبعادها، ونزواتها، وأهوائها، وبذلك الانكشاف تتعري الذات من منطقية التفكير؛ لتتجرف وراء مزاج النص وتوازنه. ظهور تجليات نسق الذات والهوية في الثقافة العربية، قد ظهر في أشكال متنوعة، منها تضخم الذات الشاعرة وتمركزها وتمحورها في النسق الديني والقومي، فقد أسهم الشعر إسهاماً فعالاً في تضخم الذات المستبدّة، وشارك في التأسيس لمنظومتها الفكرية، كذلك أسهم الشعر في محاولة تمركز الذات وسعيها لخلق محاوريتها الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، كذلك ما تتجلى في صفة الذات الواهبة، فالتركيز على قيمة الكرم والعطاء بالذات من دون غيرها من القيم الاجتماعية، يتصل اتصالاً وثيقاً بمضمّن الشاعر النسقي المتمثل في حب الظهور، وتحقيق السيادة والزعامة القبلية والشهرة الاجتماعية.

المصادر:

- الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، د. رؤوف الواعظ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية، سلسلة الكتب الحديثة، د.ت، ١٩٧٤.
- الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٨.
- الآخر الديني في الشعر الأندلسي: حسنين عماد عبد الله، رسالة ماجستير، جامعة بابل.

(١) ديوان المظفر: ١٥٠.

(٢) ينظر: اعيان الشيعة: ٦ / ٣٥٦.

(٣) شرح ديوان الدكتور عبد الرزاق محي الدين، محمد حسن محي الدين، بابل، ١٤٣٦ هـ: ٤٧٩.

- الأسس النفسية للأبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف، دار المعارف، مصر، ١٩٥١م.
- اعيان الشيعة. المؤلف: السيد محسن الأمين، تحقيق وتخريج: حسن الأمين دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان.
- أوروبا في مرآة الرحلة - صورة الآخر في الأدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ١٩٩٥.
- تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، خليل اينالجيك، ترجمة: محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي - دار الكتب الوطنية، بنغازي - ليبيا، ط ١، ٢٠٠٢م.
- الترجمة والإمبراطورية نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، دوغلاس روبنسون، تر: ثائر علي ديب، سورية - دمشق، دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠٠٩.
- التطور الاقتصادي الحديث في العراق، محمد لمان حسن، بيروت.
- حوار الثقافة والقيم والمجتمعات الثقافية: عبد الله ابراهيم، ثقافتنا للدراسات والبحوث / المجلد ٥ / العدد السابع عشر ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.
- الحوار مع الآخر، بين ثقافة في عصر الهامش وثقافة المركز العولمة، عزيز العكايشي.
<http://www.umc.edu.dz/vf/imaqes/revue-lanque108%20%20.pdf>.
- الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، مصلح النجار وآخرون، الأهلية، الأردن، ط ١، ٢٠٠٨.
- ديوان أبي المحاسن الكريلائي، ترجمة صاحب الديوان التي كتبها محمد علي اليعقوبي، مطبعة الباقر، النجف الأشرف، ١٩٦٣.
- ديوان الجعفري، صالح بن عبد الكريم، ابن جعفر كاشف الغطاء، جمعه وحققه، علي جواد الطاهر، ثائر حسين جاسم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م.
- ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه د. ابراهيم السامرائي، وآخرون، مطبعة الاديب بغداد، ١٩٧٣.
- ديوان الرصافي، ديوان الرصافي، شرح وتعلق مصطفى علي، وزارة الاعلام، مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٢.
- ديوان الشبيبي، عنيت بنشره، جمعية الرابطة العلمية الأدبية، القاهرة، مطبعة التأليف والترجمة والتغيير، ١٩٤٠م.
- ديوان الشيخ محمد رضا المظفر، جمعه وعلق عليه- محمد رضا القاموسسي، لبنان، بيروت، مطبعة الرافدين، ط ١، ٢٠١٧.
- ديوان اليعقوبي، محمد علي اليعقوبي، مطبعة النعمان - النجف الاشرف، ط ١، ١٩٥٧.
- ديوان بحر العلوم، شاعر الشعب محمد صالح بحر العلوم، مطبعة دار التضامن، ط ١، ١٩٦٨م.
- ديوان علي الشرقي، جمع وتحقيق: إبراهيم الوائلي وموسى الكرياسي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩.
- ذكرى حبيب، ديوان العبيدي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٩٦٦.
- شرح ديوان الدكتور عبد الرزاق مح الدين، محمد حسن محي الدين، بابل، ١٤٣٦هـ.
- الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، إبراهيم الوائلي، مطبعة العاني - بغداد، ١٩٦١م.
- شعراء الحلة، علي الخاقاني، النجف، ١٩٥٢.
- العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أنور الجندي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م.
- في شرقي الموصل تقيم فئة عرفت بالزيدية وهي تعتنق ديانة تزعم بأنها سماوية جاء بها يزيد بن معاوية من لدن الرسول الأعظم.
- الكاظمي، مهدي البير، مطبعة الزعيم - بغداد، ١٩٦١م.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د، ط، ١٩٩٦.
- الكلم المنظوم، الزهاوي، بيروت، ١٩٠٨م.

- لمحات اجتماعية، علي الوردي، دار كوفان، لندن، ط٢، ١٩٩٢٥م.
- اللهفات ديوان شعر ونثر، محمد ناجي القشطيني، مطبعة شفيق -بغداد، ط١.
- مباحث الفلسفة، ديورانت، ترجمة احمد فؤاد الاهواني، تقديم: ابراهيم بيومي مذكور، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠١٦م.
- المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجزائرية، ٢٠٠٣م.
- مقدرات العراق السياسية، محمد طاهر العمدي، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٢٥.
- نحن والآخر، محمد راتب الحلاق: دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٧.
- النظام الديني والمؤسسة الدينية، غني ناصر حسين القرشي، مقال، ٣٠٣، ٢٠١٧، ساعة ٣٠:٠٩، الموقع الالكتروني <http://www.vobbylon.edu.iq.net>
- اليزيدية، صديق الدملوجي، مطبعة بغداد، العراق، ١٩٤٩م.